الأحد الخامس من الصّوم

إسمحوا لي، يا أحبّاء، أوّلاً أن أشكر الرّبّ على عطاياه. الرّبّ يعطينا أكثر بكثير ممّا نستحقّ، أنا أتكلّم عن نفسي. وأشعر في هذا اليوم، أنّه قد غمرنا بعطاياه، وبنعمه الكثيرة. وأعطاني نعمة كبيرة جدا أن نكون بينكم أنتم هذا الشّعب الطّيّب، والمحبّ لله، في عمّان. وهذا حصل بدعوة خاصّة من أخينا الحبيب، وراعيكم الجليل، سيّدنا بنديكتوس، الّذي سمعنا عنه الكثير، والتقيت به في دمشق، عندما ذهب إليها لكي يعيّد سيّدنا البطريرك أغناطيوس الرّابع، في يوم عيد شفيعه: عيد القدّيس أغناطيوس الأنطاكي، في العشرين من كانون الأوّل المنصرم.

ولهذا، أقول كلمة، أشعر بأنّني أريد أن أقولها من أعماق قلبي: أشكره على محبّته، على حسن ضيافته، على استقباله، على ابتسامته وعلى المحبّة الأبويّة، الّتي يشعر بها الإنسان عندما يكون بجانبه. وقد أنعم الرّبّ عليّ بفرح فوق فرح، ونعمة فوق نعمة، بأن أكون معكم في هذا اليوم الّذي نقيم فيه تذكار القدّيس بنديكتوس، وهو الاسم الّذي يحمل صاحب السّيادة شفاعته، ونتوجّه إليه (كما ذكر أبونا) باسمي، وباسمكم جميعاً، وباسم جميع أبنائه، ومحبّيه، مصلّين إلى الله أن يمدّه بالعمر الطّويل، وإلى سنين عديدة بالصّحّة والعافية والقوّة، حتّى يتمّم هذه الخدمة الّتي يقوم بها؛ فإلى أعوام عديدة يا سيّدنا، وكلّ عام وأنتم بألف خير، وإنّني أيضاً، أمامكم جميعاً، أنقل إلى صاحب السّيادة أدعية وبركات صاحب الغبطة سيّدنا البطريرك أغناطيوس الرّابع، بشكل شخصيّ في يوم عيده هذا، طالباً له العمر الطّويل.

نحن اليوم يا أحبّاء، في الأحد الخامس من الصّوم، أي الأحد الأخير الّذي قبل الشّعانين، الأحد المقبل سيكون أحد الشعانين، ومن ثمّ نصل إلى الأسبوع العظيم، ثمّ الفصح العظيم المقدّس. ففي هذا الأحد نقيم تذكار القدّيسة مريم المصريّة، وقد اختار آباؤنا القدّيسون أن يُتلى من الإنجيل المقطع الّذي سمعناه، والّذي فيه ابتدأ الرّبّ يقول لتلاميذه عمّا سيحصل معه، وأنّه سوف يدخل إلى المدينة المقدّسة أورشليم، وسوف يُسلم إلى أيدي البشر، وأنّهم سوف يعذّبونه، ويجلدونه، ويرفعونه على صليب، ويميتونه، ولكنّه سوف يقوم في اليوم الثّالث.

إذاً، ابتدأ الرّبّ بتهيئة تلاميذه لحدث الآلام، لحدث القيامة ولحدث الفصح المجيد. وهذا يذكّرنا بأمر مهمّ ألا وهو الصّليب، فابن البشر، أي الرّبّ يسوع المسيح، سوف يدخل إلى المدينة المقدّسة، فيقبضون عليه، ويأخذونه فيجلدونه، ويضربونه، ويرفعونه على الصّليب. يتألّم؛ هذا الوجه الأوّل للصّليب حيث نرى الألم، لقد كابد الرّبّ من أجلنا آلاماً كثيرة، ولكنّه، كونه هو الرّبّ، وسيّد الحياة والموت، فالموت لا يستطيع أن يغلبه. ولهذا، فإنّه عندما رُفع على عود

الصّليب، فقد ظنّ الّذين رفعوه أنّهم قد أنهوا قصّة هذا الإنسان، ولكن بالعكس، فقد داس الموت، وكسّر أبواب الجحيم، وقام منتصراً وفاتحاً لنا أبواب الملكوت.

وهنا نستطيع أن نتأمّل يا أحبّاء، بأمر مهمّ جدا، إذا كنّا نذكر في الكتاب المقدّس، عندما خلق الله الخليقة والكون (لتكن الشمس فكانت، ليكن القمر فكان...) فبمجرّد أن قال الله، فما قاله قد صار. ولكن عندما خلق الله الإنسان، يقول لنا الكتاب المقدّس إنّ الله لم يقل ليكن الإنسان، كما قال عن سائر الخليقة. بل يقول إنّ الله قد أخذ تراباً وجبله بيديه، كأنّ الله قد تعب بالإنسان لأنّه قد خلقه بيديه، لأنّه يهمّه، فلهذا قد أكرمه بشكل خاص بأنّه صنع جبلة بالذات ونفخ فيه من روحه القدّوس، أي وضع فينا صورته الإلهيّة. الله أكرم الإنسان بكرامة لا يمكن التّعبير عنها بكلام بشريّ، لأنّه خلقه هو بيديه ونفخ فيه من روحه القدّوس وأكرمه، بالتّالي أكرمه كرامة لا توصف لأنّه قد نفخ فيه من روحه القدّوس.

هذا الإنسان الّذي أحبّه الله بهذا المقدار، وأعطاه أن يكون في نوره الإلهيّ عصى الأمر الإلهيّ، قد أخطأ، كلّنا نعرف، فطُرد من الفردوس، وخسر ملكوت النّعيم، ولكنّ الله الّذي أحبّ الإنسان وأبدعه على صورته ومثاله لم يشأ أن يهلك الإنسان في خطيئته، وأن يموت بالخطيئة، ولكنّه وعده بمخلّص، بعث لنا الأنبياء، وأرسل الرّسل، إلى أن في كمال الأزمنة؛ أرسل الرّبّ يسوع ابنه الّذي تجسّد من العذراء مريم، فأخذ جسداً مثل جسده دون الخطيئة. تجسّد الرّبّ يسوع من العذراء مريم، وعاش بين النّاس، وأكل مع النّاس، وتصرّف مع النّاس، وعلّم النّاس، وهذا كلّه لأنّه أحبّنا، ولأنّه أراد أن يعيدنا إلى الفردوس، إلى الملكوت من جديد.

وكانت القصّة كما نعرفها جميعاً، أنّه احتمل ما احتمل من إهانة، من ضرب، من إكليل شوك، رُفع على الصّليب، وطعنوه بحربة، وسمّروه بالمسامير، سخروا به وقالوا له: "إن كنت أنت ابن الله، كما تقول عن نفسك، أرنا ذلك وتفضّل انزل عن الصّليب". أمور كثيرة إذا تأمّلنا بها كبشر نرى أنّ الواحد منّا لا يقدر أن يحتمل جزءاً بسيطاً مثل هذه الأمور، ففي بعض الأحيان نلاحظ، كلّنا، أنّه إذا مرّ أحد ولم يسلّم علينا كما يجب (يزعل ويأخذ على خاطره)، ومن الممكن أن لا يعود ويسلّم عليه، لأنّه لم يحترمني، وأهان كرامتي... ولكن أين كانت كرامة الرّبّ يسوع الّذي هو الله عندما قبل كلّ ما قبل من لطمات، وضربات، وجلدات، من آلام، ودم قد نزفه على الصّليب، عندما وُضع على رأسه إكليل من شوك، وهو قال لهم "إن كنت أريد أن أستدعي اثنتي عشر جوقة من الملائكة، وأريكم أنا من أكون"، لكن حتّى يتمّ الخلاص والعمل الّذي أتى من أجله حتّى المنتهى، فاحتمل كلّ شيء، وشرب الكأس حتّى الثّمالة، كما قال هو. ولهذا نستطيع اليوم أن نتذكّر محبّة الله.

وبناءً على كلّ ما سمعنا عن عمل الرّبّ يسوع الخلاصي، أسأل سؤالاً: ما هي علاقة هذه الأحداث بي أنا؟

إذا كان الموضوع أنّ الرّبّ يسوع هو الرّبّ، وأتى، وتجسّد، وتألّم، ورُفع على صليب، وكونه هو الرّبّ داس الموت، وقام من على الصّليب منتصراً، الموضوع هو كي يقيمنا معه، وكي يجعلنا أبناء القيامة معه، وكلّ ما قام به الرّبّ يسوع يمسّ حياة الإنسان، يمسّ حياتي أنا شخصيا، يمسّ كلّ واحد منكم. يمسّ حياة كلّ إنسان على وجه هذه البسيطة، كلّ الّذين كانوا من عهد آدم قبل المسيح في الجسد، وكلّ الّذين كانوا أيّام المسيح بالجسد، وكلّ الّذين سيأتون بعد المسيح حتّى المنتهى. أي بكلام آخر، بهذه الأحداث الخلاصيّة الرّبّ يسوع ارتضى أن يأتي، وأن يقوم، وأن يظهر بمجده، وأن يدوس الموت. لِم يريد أن يقوم بهذه الأعمال؟ لكي يرينا عظمته وقوّته، لكي يقول الإنسان: أنظروا كم هو عظيم هذا الإنسان. الرّبّ هو عظيم ولا ينتظر أن نقرّ نحن بذلك لكي يصبح هو عظيماً. عندما نقول مثلاً: "قدّوس الله، قدّوس القويّ، قدّوس الّذي لا يموت، ارحمنا"؛ نحن هنا لا نعطيه القداسة، بل هو القدّوس، وقداسته، وكرامته منه وفيه، ولكن عندما نقرّ نحن ونقول "قدّوس الله..."، نقرّ بقداسة الله، تنعكس قداسته علينا من فوق، فتتقدّس حياتنا، نحن الّذين نتقدّس عندما نسبّح الرّبّ، ونكرّم الرّبّ، ونقدّس الرّبّ. الرّبّ يسوع تألّم وقام حتّى يرسم لنا طريق الخلاص الّي هو الصّليب، ولذلك نحن أصبحنا في كنائسنا وبيوتنا وصدورنا نضع إشارة الصّليب الّتي صارت هي إشارة الخلاص، لأنّ الرّبّ يسوع أي المصلوب رُفع عليه، وحول هذه العلامة من علامة خطيئة للإثم إلى علامة خلاص.

الصّليب هو درب الآلام، وأن يموت الإنسان أوّلاً كما مات الرّبّ يسوع على الصّليب أن يموت عن ماذا؟ لا أن يموت بالجسد، كلّنا سنبقى أحياء بالجسد، ولكن أن يموت عن الخطيئة. والموت الحقيقيّ هو موت الخطيئة. الموت الحقيقيّ ليس عندما تفارق النّفس الجسد، الموت الحقيقيّ هو موت الخطيئة، وقد يكون الإنسان أيضاً يحيا على هذا الأرض بجسده ولكنّه يحيا بالجسد ويكون ميتاً بالرّوح. هنا، مطلوب من الإنسان أن يجاهد هذا الجهاد، أن يموت عن العالم وعن أباطيل العالم، عن الخطيئة، عن الرّذيلة، وهذا معنى الصّوم. لماذا نحن نصوم؟

الآن في فترة الصّوم، لماذا نحن نصوم؟ نتعفّف عن أمور كثيرة حتّى نفعل الخير ونكون واعين ومحبّين، حتّى نجاهد الجهاد الحسن، نحن نسلك درب الصّليب بأن نموت عن العالم، وعن أركان العالم، وعن الخطيئة، وعن الرّذيلة، وأن نتحلّى بالفضيلة، أن نلبس الإنسان الجديد الّذي هو المسيح يسوع الّذي قام من بين الأموات ناهضاً منتصراً، ونلاحظون الرّبّ يسوع قد أنهى المقطع الإنجيلي بقوله إنّ ابن البشر أتى كي يخدم لا أن يُخدَم. إذاً وكأنّه يظهر لنا طريق الخلاص أنّها

هر طريق الخدمة، طريق الصليب: عندما يميت الواحد نفسه من أجل الآخرين، وعندما ينسى الواحد نفسه من أجل الآخرين، عندما يجوع هو كي يشبع الآخرون، عندما يتعب هو كي يرتاح الآخرون، هذا هو الإنسان المسيحيّ، هذا هو الإنسان المؤمن الذي يسير على شاكلة سيّده على شاكلة ربّه متمثّلاً به. وآنذاك، في الحقيقة، يكون صيامنا مقبولاً أمام الرّبّ، وننهي الصّوم، وندخل إلى الأسبوع العظيم، ونكون مع الرّبّ يسوع في درب آلامه، ونكون أيضاً معه في قيامته.

فعندما يأتي يوم الفصح ونقول المسيح قام، نشعر أنّ المسيح قد قام في قلوبنا، نشعر أنّ المسيح قد قام فينا، لأنّ الواحد منّا يشعر أنّه قد صار إنساناً جديداً تحوّل من إنسان عتيق بالٍ، من إنسان عتيق بخطاياه إلى إنسان جديد بنعمة الرّبّ يسوع المسيح تحلّى بأمور كثيرة، بوصاياه الإلهيّة، لأنّه سعى في صيامه لأن يعيشها وأن يحيا بموجبها.

الرّبّ يسوع بشفاعة العذراء مريم، بشفاعة القدّيس بنديكتوس، لم أتكلّم عن القدّيس بنديكتوس شفيع سيّدنا المطران بنديكتوس، هو أحد الآباء القدّيسين المشهورين من القرن الخامس من بلاد روما من إيطاليا، عاش راهباً، واختار أن يكون راهباً، وبنى ديراً للرّهبان، ومن ثمّ عُرفوا بالرّهبان البنديكتيّين، فهو أحد الأشخاص الّذين أحبّوا المسيح، وأعطوا حياتهم للمسيح، وأرادوا أن يشهدوا في حياتهم للمسيح. وهذا يا أحبّاء أقوله شهادة بصدق ما شاهدته في هذه الأيّام بوجودي في هذه المطرانيّة، في هذه الدّار الكريمة، في هذا البلد العزيز على قلوبنا، رأيت سيّدنا وكأنّه ذلك الأب الّذي يحبّ أولاده وأولاده يحبّونه، الكلّ ملتفّون حوله، وهو يعرفهم جميعاً بأسمائهم. رأيت باب المطرانيّة مفتوحاً، والدّاخل والطّالب أيّ خدمة أو بما يريد، أو أيّة حاجة يريد، مثل الأب الّذي يتفقّد رعيّته، ورعيّته تسهر عليه وهو يسهر عليها، هذا هو الرّاعي الصّالح. نسأل الرّبّ الإله بصلواتنا جميعاً أن يمدّه بالصّحة والعافية ويعطيه الصّبر والقوّة لكي يتابع خدمته. لقد قال لي البارحة، أنّه بحث في المصادر، وأنّه يوجد حوالي ثلاثة وعشرون قدّيساً أردنيا من هذه الدّيار لا نعرفهم، مجهولين، لا أحد يعرفهم. كان يقول لي كم من المهمّ أن نعرف قدّيسينا المحلّيين، وسيصوّر أيقونة لهؤلاء القدّيسين، وتُكتب خدمة لهم، ويُخصص يوم للتّعييد لهم، وبالفعل شاهدت هذا الرّاعي الصّالح الّذي ينظر إلى الله وينظر إلى شعب الله، والّذي يرى بنفسه خادماً صادقاً حقيقيا لهذه الشّعب الطّيّب.

فبوركتم بهذا الرّاعي الصّالح، وبورك أيضاً بكم أنتم الرّعيّة الصّالحة، كان الله معكم، وكلّ عام وأنتم بألف خير، وإلى أعوام عديدة.